استلاب الواقع وتشظي الزمن في رواية «مواقيت الصمت»

شوقي بدر يوسف *

السكوت علامة الرضا. (مثل سائد)

يتشظى الواقع وتتحطم حوافه وتخومه جراء الصمت الذي يخيم على أزمنته ومواقيته، وينتج عن ذلك أن اللغة الصامتة انتشرت بين الناس بدلا من لغة الحوار والتواصل والكلام، ولعل أصداء هذا التشظي، والحطام الناتج عنه، قد استقر، وأصبح سمة من سمات هذا العصر، يرنو إليه الناس ولا يلتفتون إلى نتائجه حتى أصبح الواقع الآن تسيطر عليه مظاهر اللامبالاة وسطوة المادية والمنفعة الذاتية، وقد فطنت الرواية العربية في حداثتها الراهنة إلى قضايا هذا الواقع وإشكالياته فظهرت نصوص روائية تناقش هذا الطرح من القضايا الشائكة، وتحاول جاهدة أن تقرأ ملامح الواقع الراهن وأن تضع يدها على بعض مظاهر سيميائية العصر وإشاراته المتواصلة والسائدة بين الأفراد والجماعات وأن تدلل من خلال هذه الفوضى السائدة على عمق التشظي واستلاب الواقع داخل نسيج المجتمع وجوانبه المختلفة.

ففي سبع متواليات ومقاطع روائية يحرك القاص الروائي خليل الجيزاوي في روايته الأخيرة «مواقيت الصمت» الراكد من إشكاليات تجمّعت في بؤر عدة من بؤّر الواقع الاجتماعي، وهي البؤر المحملة بألوان من التشظي المرير، والمأزوم، والواقع ظلالها على دائرة عريضة من شرائح المجتمع، في قاعه المتدني والمهمش كما أيضا مع النخبة في قمته على السواء، ولعل هذه الثيمة وتجسيدها داخل صيغة الخطاب الروائي تبرز لنا واقع الإشكاليات الإجتماعية المتجذرة في جسد المجتمع ونسيجه وتوضح مدى هول ما يعيشه الآخرون في واقعهم الخاص والعام. وحجم الفجوة الكبيرة الواسعة والحادثة بين طبقات المجتمع المختلفة، كذلك التصاعد المستمر لبعض الفئات على حساب الفئات الاخرى العائشة في القاع صامتة ترزح في دونيتها وهامشيتها لا تحرك ساكنا. ولعل عتبة النص التي بدأ بها الكاتب روايته وهي العنوان قد أثارت في نسقها وصيغتها - المكون من كلمتين لهما دلالة الزمن - شيئا من الجدل والشجن في آن معاً، أثارت جدلا تأويليا حول ماهية هذه المواقيت الصامتة، وطبيعة الأزمنة المعيشة الآن، الصامت فيها كل شيء والتي تعبر عن الواقع المأزوم المليء في نفس الوقت بتناقضات الصخب والعنف، كما تثير عتبة النص أيضا ضمنيا الشجن حول المآسي الإنسانية للواقع لهذا الواقع والتحولات الحادثة فيه وما تثيره حرارة بعض القضايا من حزن وأسى. وهي ما فتئت تطول فئات المجتمع المختلفة خاصة الأطفال الصغار في آلية جديدة تتنامى معالمها وتتعاظم ملامحها في كل مكان من واقعنا الراهن، وتثير في الوقت نفسه نوعا من التوتر الإنساني يملأ المكان والزمان بالمفارقات والمتناقضات، حول هذا الصمت الذي تحول بمرور الوقت إلى سطوة كبيرة للعنف والقهر، وتحولت أهم قضاياه الاجتماعية

وهي قضية أطفال الشوارع إلى قنبلة موقوته تنذر بالانفجار في أي وقت من الأوقات.

الشخصية الملتبسة والشخصية المستلبة

احتفى الكاتب بوضعية مصائر وحياة الشخصيات داخل النص، وأقام من أبعاد هذه الوضعية ملامح، وظلال، أسقطها على ماهية الخطاب الروائي. بحيث سجلت الشخصية كل همومها، وهواجسها على مرآة الواقع، وشكلت كل شخصية على حدة، إطارا خاصا بها، سردت من خلاله، واقع التشظي المتناثر في نسيج حياتها، وطبيعة ما حدث لها على المستوى الواقعي والتخييلي، وحددت من خلال ذلك طبيعة الصمت الذي آثرت أن يكون ديدنها في حياتها. بحيث وضح من التباس بعض الشخصيات، والاستلاب الذي طال البعض الآخر صورة التجربة الإنسانية الراهنة بملابساتها وظروفها وواقع ما ترفده حياتها من تأزمات اجتماعية ومفارقات نفسية صنعتها مواقيت الصمت الحاصلة على طول ما يحدث لكل شخصية كما جسدها الكاتب على المستوى الإنساني من داخل داخل ذات الإنسان، ومن ثم فقد كان الإنسان بهمومه وهواجسه ورغباته وآماله وثقافته داخل النص هو المحورالأساسي الذي احتفى به الكاتب في كل القضايا المثارة والمستثارة» : فالرواية هنا تتعامل مع إنسان محدد الأسم جاء من الناس، وينتمي إليهم، وبحث عن مصيره منفردا، أو مع بشر يقاسمونه المصير ولا يختلسون من فرديته شيئا « (١) لذا كانت وضعية الانسان في حياته هي الاشكالية الرئيسية المعّول عليها التشظي الذي طال معظم الشخصيات واستلب واقعها ووضعها أمام محكات الصمت الذي غلف حياتها وجعل منها شيئا لا يسمع ولا يرى. فالأب الذي حضر في تهويمات الابنة هند وهي ترفد واقعها وتتشظى في لحظات حياتها الخاصة، ويتواجد في مخيلة هواجسها، إنسان صنع حياته بنفسه، هو هنا يحكي لابنته واقعه الذي كان، ووضعيته المستلبة في الحياة، كيف كان، وكيف أصبح؟ والهموم الذاتية التي طالت حياته منذ نشأته وحتى رحيله، وشخصية هند وهي الشخصية الرئيسة الساردة والراوية لواقع الأحداث والعائدة من اغترابها وهي تحمل عبء السنوات التي قضتها في دراستها بفرنسا، هي في

لعب الالتباس والاستلاب دوره في حياة التوأم هند وهبة بحيث عاشت الأولى حياتها وهي شبه مغيبّة

عودتها تحاول بشتى الطرق أن تتلمس طريق الخلاص مما يؤرقها ويثقل كاهل السنوات التي عاشتها في غربتها، هي كما صورها الكاتب شخصية ملتبسة، ومستلبة في الوقت نفسه، تتأرجح طبيعتها مع طبيعة توأمها الميت (هبة)، والتي تعتقد في مخيلتها أنها تحاورها وتحاول أن تتلّبس طبيعتها، ان تستلب منها واقعها الخاص، ففي المقطع الثاني من النص يبرز الوجه الثاني من هذه الشخصية الطفيلية في حضورها المقيت والفاعل في حياة الشخصية الرئيسة (هند)، هذا المقطع يحمل عنوان «هي» ويصدّره الكاتب بهذه العبارة « : قالوا :

التوأم الثاني الذي يبقي على قيد الحياة يعيش بنصف روحه فقط! « (٢).

لقد كانت الآلية التي جسد بها الكاتب شخصيتي هند وهبة هي آلية خاصة عملت على ثيمة ازدواجية الشخصية أو الشخصية الملتبسة التي تستلب إحداهما الأخرى، فقد التبست التوأم هبة توأمها هند منذ رحيلها في العام الأول من ولادتها، واستخدم الكاتب الأنثربولوجي الخاص بمعتقدات متجذرة في ضمير بعض أفراد المجتمع من خلال بعض المقولات التي تشير إلى إلتباس التوأم المتوفى روح القطط، ثم ما تلبث أن تنتقل هذه الروح إلى روح توأمها لتشاركها حياتها، وقد احتفى الكاتب بهذه المنطقة الماورائية احتفاء خاصا، حتى إنه يفرد لها مشهدا واقعيا جمع بين التوأم هند وهبة في مستويين مختلفين، مستوى غرائبي، ومستوى واقعي واجهت فيه كل منهما الأخرى.

« : إنني أشعر بها، حين أسكن أنا، تتحرك هي، أقفل أنفي، أحس بها، تأخذ نفسها من فمي!

أتحرك، تسير خلفي، كأنها تطاردني، أقف، تستدير ناحيتي لتتأملني، أسمعها تسخر مني تضحك على انكساراتي، هزائمي الكثيرة.

أنظر إليها، أواجهها، تتفلت منّي، تفر هاربة، تقف بعيدا، تراقبني، تخرج لسانها لي كل فترة!

أغمض عيني، أستدير، أتلفت حولي، أجلس على الكرسي القصير أمام مرآة التسريحة، اسمع صوت تكسّر زجاج المرآة، تخرج، أدعوها للتصالح معي، لا تزال ترقبني بحذر « (٣).

لقد لعب الالتباس والاستلاب دوره في حياة التوأم هند وهبة بحيث عاشت الأولى حياتها وهي شبه مغيبّة كأي فتاة لها ظروفها الاجتماعية والنفسية الخاصة، يعيش والدها في حي شعبي له طقوسه الدينية والاجتماعية الخاصة وهو حي السيدة زينب، عمله في مجال المقاولات يأخذ تقريبا معظم وقته، وتعيش والدتها مع شقيقها في حي آخر راقٍ له خصوصيته الإجتماعية في التعامل وهو حي مصر الجديدة، ويفعل هذا التمزق وهذا الشرخ دوره في حياة هند، وتنتهز توأمها هبة هذه الفرصة فتحاول أن تستلب من أختها اجمل ما في حياتها، كما استلبت هي كلية في بداية حياتها، شاركتها أحلامها وهواجسها وسيطرت على بعض مشاعرها ورغباتها حتى إنها في المرحلة الثانوية كانت سببا في فقدها لعذريتها حين دفعتها دفعا إلى شبقية اللحظة الفاصلة بين الفتاة والمرأة مع شاب وضعته هي في طريقها، وهي لحظة وإن كان الاستلاب فيها نابعا من رغبة تدميرية عند هبة أرادت بها أن يكون لها حضور حقيقي في ذات توأمها هند، إلا أن حدوثه كان يدل على لحظة خاصة من لحظات الصمت، فقد كانت هند في هذه اللحظات الفارقة تعيش مع روح توأمها صمتا لم تكن تعيه ولكنه كان يتفاعل ويتشظى واقعه في كل لحظات حياتها: «في الصباح اكتشفنا معا، من البقعة الحمراء الكبيرة التي زينّت الملاءة، مدى المغامرة التي قمنا بها، نظرت إليه طويلا، نكس رأسه مني خجلا ناحية الأرض، لكنني قمت إليه، عانقته، قبّلته صامتة!» (٤). وقد تكررت داخل النص حالات الاستلاب الشبقية التي هي صورة اخرى من مواقيت الصمت، تكررت مع شخصيات اخرى وضح فيه

التشظي في واقع حياة كل منها، إلا أنها كانت حالات قدرية، حاول الكاتب فيها أن يتلمس بعض قضايا الواقع الإجتماعية في حالات مثل حالات « أم دنيا » الفتاة التي وقعت في براثن الغواية نتيجة الواقع الاجتماعي المأزوم الذي كانت تعيشه فكان سقوطها مع سائق التاكسي الذي وعدها بالزواج، ثم تركها لمصيرها المحتوم، ومثل حالة أم شحته الخادمة التي سقطت على يد مخدومها في لحظات ضعف أنثوية، ثم ما لبثت أن تزوجت سائقه، ومثل حالات أولاد الشوارع الذين استلب واقعهم الاجتماعي نتيجة التمزق السائد في أسرهم سعيد وصابر وعلاء وهيثم حتى محمد جنينه زعيمهم الذي يبيع جسده إلى سيدات المجتمع الراقي لقد كان استلاب الواقع عند كل شخصية من هذه الشخصيات نتيجة الواقع الاجتماعي المأزوم الذي وجدت الشخصية نفسها فيه، وكان الصمت والسكوت هو الحل الأمثل بالنسبة لكل شخصية، وقد حاول الكاتب من خلال النص أن يجسد واقع المشكلة وأن يدين المجتمع بأكمله حيال هذه الإشكالية المتفاقمة في كل مكان، بل وأن يضع لها بعض الحلول الخاصة من خلال الأحداث والنسق وواقع الشخصيات ذاتها. وقد كانت هذه المشكلة في نسيج النص أحدي الشفرات المهمة التي لعب عليها الكاتب في تجسيد الاستلاب والتشظي الحادث في جسد المجتمع من خلال سيمائية حدد لها أيقوناتها وعلاماتها المتداخلة مع الأحداث والمعبرة عن واقع الاستلاب والتشظي والصمت الرهيب الواقع على جسد المجتمع.

سيميائية النص

في إشارات وشفرات خاصة تواجدت في مواضع عدة من النص تتبدي دلالة هذه الإشارات وهذه العلامات لتوضّح لنا ماهية ما يسير عليه النص من صور ومفاهيم خاصة عبر الإشكالية الرئيسة التي جسدها الكاتب ليعوّل من خلالها على الجانب الإنساني المراد التعبير عنه، وهي إشكالية الصمت والبحث عن حقيقة هذا الصمت الرهيب الذي خيم على الجميع، وحجب الرؤية عن حقائق كثيرة في صورها المختلفة الحسية والمعنوية. وسيميائية النص بإشاراتها وعلاماتها الخاصة تنحو نحو إيجاد أبعاد دالة، تجسد، وتعبّر عن عمق المدلولات في بنية التجربة الروائية التي أراد الكاتب أن يقول من خلالها معني النص، ودلالاته، وهذا الطرح من القضايا والإشكاليات الاجتماعية الطاحنة، ولعل سيميائية العنوان المكون من كلمتين دالتين على معنى الزمن هما « مواقيت الصمت » كان هو المدخل المؤثر والفعال وربما المختزل لمعنى النص، ما يدور فيه، وما يكتنفه من ممارسات، كما كان البحث عن الحقيقة هي العلامة الأولى أو الشيفرة الاستهلالية التي أراد الكاتب بها الدخول إلى ماهية النص عبر الشخصية الرئيسة، هند، العائدة من بعثتها بفرنسا لاستكمال بحث الدكتوراه حول أطفال الشوارع في الحواري والأزقة والأماكن المهمشة في مدينة القاهرة. ولعل السنوات العشرة التي قضتها هند في فرنسا هي التي فجرت لديها هذه الشحنة الكبيرة من الحنين والدهشة والتساؤلات عندما صافحت عيناها شارعي الناصرية وجامع الإسماعيلي بحي السيدة، كما أن هذه السنين الطويلة كانت تمثل لها أيضا نوعا خاصا من الصمت الذاتي تجاه المكان الأصيل الذي كانت تسكنه مع والدها في هذا الحي العريق بشوارعه وحاراته الشعبية، وحين بدأ النص بهذه الاستهلال المباشر « : أعود للبيت منكسرة، أصعد الدور الثالث منهكة، لكن يدفعني ألف سؤال كي أبحث، أفتش عن الحقيقة » (٥). تتداعى الخواطر والهواجس الباحثة في هذا الصمت الذي يلف المكان عن الحقيقة كاملة، وتأتي إليها الإجابة عبر تهويمات التخييل الغرائبي لدى الشخصية من خلال صورة الأب في إطارها الذهبي وكان هذا الإطار بمعناه الفضفاض الواسع ومعناه الواقعي نوعا خاصا من الصمت أو هو الشيفرة التي سوف تفسح المجال لمعرفة جزء يسير من الحقيقة عبر ما تحمله من دلالات ومدلولات خاصة بالأسرة التي عاشت بينها في طفولتها وصباها وشبابها في هذا المكان. وينتقل الأب في تخييلية مباشرة من إطار الصورة ليجلس في المكان نفسه الذي كان يجلس فيه قرابة عشرين عاما قبل رحيله، ويضع الحقيقة الأولى في مواقيت هذا الصمت الرهيب أمام ابنته، قصته كاملة مع أمها، حكى وسرد لها كيف سيطرت الأم على مقدرات الأمور كلها باعتبارها ابنة ولي نعمته الذي كان سببا في ارتفاعه ووصوله إلى هذه المكانة من المال والجاه، لقد كانت الأم من طبقة اجتماعية غير طبقته الفقيرة لذا كانت تتعالى عليه وتحاول بشتى الطرق التحكم في حياة الأسرة كلها « : آه يا بنتي ما أشقي الإنسان حين يعيش في بيته مهزوما !!!

تسأليني لماذا رضيت بهذا؟

أو لماذا طالت مواقيت الصمت ؟ (٦).

وتتداعى الخواطر في مخيلتها عندما يخبرها والدها عن أيام الفزع التي كانت تقلقها وتؤرق حياتها، يجيب لها عن سؤال كبير طالما أرقها وعن سر العذاب الذي ظل يطاردها، أخبرها عن حقيقة أختها هبة توأمها الذي ماتت بعد عام من ولادتها، وعن تلك الحقيقة المرة التي عاشها في هذه الفترة من حياته، والذي صمت عنها سنوات طويلة، وعاش مواقيتها ممزقا، ومشاهدا لكل ما طالها من عذابات ومكابدات.

ويستطرد الأب في سرده فيقول « : مواقيت الصمت.. إنها رواية عبثية عشنا أحداثها أنا وأنت يا ابنتي لماذا لا تعيدي ترتيب كتابة أحداثها؟ ولماذا لم تبدأ مواقيت الكلام بعد؟ (٧).

كما يسرد الأب أيضا ارتباطه بالمكان وارتباط ابنته بنفس المكان وكأنها مصابة بعقدة ألكترا لارتباطها العميق بأبيها ومكانه الأثير من خلال ارتباطها به، ويستثمر الكاتب الموروث الديني الصوفي والثقافي في بلورة موقف الأب حول هذه العلامة أو هذه الشفرة التراثية التي حوّلها الكاتب إلى بعد سردي ارتبط بالمكان الأثير لديه ولدى أبنته ولدى كل من كان على شاكلته. كذلك استخدم الكاتب بعض الشفرات أو الأيقونات الدالة لجذب انتباه القارئ نحو بعض المفاهيم الخاصة بمستويات النص المختلفة. كانت القطط هي إحدى هذه الأيقونات التي استخدمها الكاتب في هذا المجال حين صدر المقطع الثالث بهذه العبارة « : قالوا:

إن روح التوأم الأول – بعد الوفاة – لا تصعد إلى السماء، لكنها تظل هائمة، ثائرة، متمردة، إلى أن تسكن وتتلبس روح القطط السوداء (٨). بهذه العلامة نجد بعدا جديدا يبرز داخل نص استخدم له الكاتب غرائبية ما وراء الواقع في مشاهد وشخصيات ليس لها حضور

على مستوى الواقع ولكن لها حضور على مستوى المخيلة فقط. وجاءت هذه العلامة على هذا النحو ليحدد من خلالها الكاتب طبيعة العلاقة التي ربطت بين التوأم، العائش نصفه والميت نصفه الآخر. لذا كان الصمت الناتج عن هذه المنطقة يغّلف هذه العلاقة ويمنحها أبعادا ميتافيزيقية حادة، خاصة وأن هذه الرغبة التدميرية الشريرة المتلبسة للتوأم الراحل قد وظفت في النص بطريقة تجعل الشخصية أشبه بشخصية مستر جيكل ومستر هايد في الرواية التي تحمل الاسم نفسه للكاتب الأنجليزي روبرت لويس ستيفنسون. ولعب الشر دورا في حياة هند بسبب هذا التمزق الذي تعيشه « : إن الشر ليكاد يدس أنفه في كل ما تحقق من أفعال، حتى إننا قلما نعثر على فعلة يأتيها الإنسان دون أن يكون فيها أدنى أثر من آثار الشر، فكيف لا نعترف بأن مجرد ارتداد الشعور الأخلاقي على نفسه ضربا من الشقاء؟ أليس الشر في صميمه إنما هو مجرد تعبير عن حالة انقسام الذات على نفسها » (٩). لذلك كانت الشخصية الرئيسة لا تعرف هويتها الحقيقة هل هي هند أم هي هبة، أم شحتة المرأة التي أرضعتها وهي صغيرة تناديها بهند فهي التي أرضعتها مع أبنها شحتة واحتضنتها وهي لا زالت صغيرة. بينما الحاجة نعمة بائعة الطعمية المشاهدة لها أمامها دائما تناديها بهبة، وهي كثيرا ما كانت تتغزل في محاسنها، فمن تكون هي؟ هذا التساؤل كان كثيرا ما يؤرقها ويزيد من تمزقها وحيراتها الدائمة. لقد كانت لغة الصمت هي السمة البارزة للتوأم هند وهبة، وإن كانت هذه اللغة تتحول بينهما في بعض الأوقات إلى لغة محاورة ومداورة، وهي لغة فرضتها طبيعة العلاقة السائدة بينهما، والتي جعلها الكاتب من العلامات الأساسية لتحرك النص وتنامي ملامحه، فهناك من المواقف التي يكون فيها الصمت له دلالة لا يحملها الكلام. ولعل ما كتبه إ.ت. هول في هذا الصدد في كتابه «اللغة الصامتة» يوضح تطور الوعي بهذه بدلالات هذه المنطقة من الذات والتي تتكلم عبر الصمت وتعبر عن أحوالها عبر السكوت وفي ذلك يقول هول: «إن من التناقضات الملغزة في الثقافات أننا نجد الناس في كثير من الأحيان يتواصلون دون اللجوء إلى الكلام، وليس هذا فحسب ولكن ثمة عالم بأكمله من السلوك لا نحاول أو نقدر على استكشافه أو تفحصه لأنه يكمن خارج نطاق الوعي، ولكن الغريب أنه يعمل في محاذاة الكلام بل في بعض الأحيان يحل محله، هذا العالم الذي يذكره هول هو عالم التصورات والمشاعر والخبرات» (١٠).

ثمة شيفرتان جديدتان أراد الكاتب بهما أن يوسع دائرة التأويل في نصه الروائي، الشيفرة الأولى هي البحث التي تعده هند لنيل درجة الدكتوراه والذي موضوعه أطفال الشوارع في مصر ومحاولة استكشاف الطريق أمام هذا البحث عن طريق عينات من الأولاد. هذه الشيفرة نجد أنها هي التي بثها الكاتب كاملة في المقطع السادس من النص والذي صدّره بهذه العبارة الدالة : «قالوا :

سوف يعيش التوأم الثاني حالة من القلق والرعب، خوفا من سيطرة روح التوأم الأول على جسدها إن عاجلا أم أجلا! (١١).

ولعل الدلالة التي حملتها هذه الشفرة وكانت ضرورية لفك الألغاز التي حملتها الشخصيات أو العينات التي حاورتها هند في هذا المقطع من النص من خلال الواقع الأجتماعي التي تعيشه كل شخصية، حتى إنها حاورت ذاتها وتوأمها هبة في ذات المقطع من خلال بعد صوتي وضحت فيه ماهية طبيعتها وطبيعة توأمها « : طوال حياتي أشعر أنني ممزقة، منقسمة على نفسي، دائما هناك أمران داخل رأسي، كثيرا ما أتوقف وسط الشارع حتى أفصل بينهما» (١٢) اضافة إلى البحث المنوط بها إنجازه في المنحة التي حصلت عليها من كليتها الفرنسية، فهذا البحث الذي تعده هند عن أطفال الشوارع، هو بحث في إشكالية صامتة لم تجد الحل الناجع لها، هي تعبير صارخ عن أن مواقيت الصمت، هند مؤمنة تماما أن هذه المشكلة ربما هي في طريقها إلى الانتهاء، ربما هي في طريقها إلى التلاشي، أنها دلالة على إيجابية المسعى في هذا المنطقة من النص وقد استكملها الكاتب بهذه الرسالة التي وجهتها هند إلى حبيبها الأول سيد أو سعيد الفاتح كما يسمي نفسه الآن وهي الشيفرة الثانية والأخيرة في هذه الأيقونات الدالة لسيميائية النص، ونص الرسالة ذاته هو الحل الذي أرادت به الشخصية أن تنهي به رسالتها أو بحثها عن المدينة الفاضلة التي أحبتها خاصة بعد أن تحررت من توأمها وبدأت طريق جديد في مشوار هذا التحرر: «عزيزي سيد

هل تسمح لي أن أكتب إليك هذا الخطاب؟

ربما يكون هو الفصل الأخير من هذه الرواية!

هل تسمح لي أن أقسو عليك قليلا؟

ربما بمساحة الود التي كانت بيننا يوما ما، أن أستثيرك، أن أخاطب فيك الإنسان الكامن في أعماقك، الرجل الذي تتهرب منه دوما، أناشدك باسم الحب الذي جمع بيننا يوما ما!

أناشدك باسم أولادك الذين يعيشون تحت جناحيك بين الدفء، والأمان، والحب، والحنان.

أناشدك – وأنت تستطيع – أن تفعل أكثر ما وعدت به، لأجل النجاح في انتخابات مجلس الشعب القادمة، ولقد تأكدت منه أثناء جلوسي على القهوة.

أناشدك أن تصنع شيئا لهؤلاء المشردين، بلا مأوى، بلا غطاء، ضعفاء بلا حماية، ضحايا بلا ذنب، جوعي بلا زاد، عراة بلا سكن (١٣).

لقد كانت هذه الوحدات الدلالية المتوافقة مع الكلمات أو الإشارات المفترضة داخل النص والتي ظهرت بطرق مختلفة وحققت أبعادا سيميائية ربما جاءت بطريقة عفوية لم يكن الكاتب يقصد طرحها بترتيب هذا السياق، إنما كان المقصود منها هو منح دلائل الحياة الاجتماعية المتمثلة في بعض المشاهد والمواقف كنظام خاص تتحدد من خلاله علاقة الشخصية بالنظام العام للحياة الواقعية التي جاءت بنسقها الخاص على مستوى النص وذلك من خلال المفردات اللفظية التي تفضي إلى المواقف الدالة، وكما يقول سوسير عن العلامة أو (الدليل) بأنه: «وحدة نفسية ذات وجهين مرتبطين ارتباطا وثيقا، ويتطلب أحدهما الآخر» (١٤).

أسئلة النص

هناك العديد من الأسئلة يطرحها النص في نسيجه العام وتطرحتها الشخصيات على نفسها في خصوصية تشكلّها وهي جميعها تتمحور حول الصمت الرهيب الذي يملأ زمننا الراهن

، وهذا الشيطان الأخرس الذي يعيش داخلنا، كذلك تدور بعض الأسئلة حول الذات العائشة حقيقتها وواقعها وكيفية النفاذ من الواقع الراهن الآني إلى واقع أفضل جديد، فالنص منذ عتبته الغرائبية الأولى وحتى الرسالة الأخيرة التي وجهتها هند إلى حبيبها سيد فتح الله أو سعيد الفاتح يحمل داخله العديد من الأسئلة يفرضها واقع القضايا المثارة في النسيج العام للنص. فالأسئلة التي طرحها النص تتمحور جميعا حول الأنا الصامتة مجازا، الساردة لواقعها المزري حقيقة، هذا الصمت الذي طال كل شيء في حياتنا وأصبح سمة عامة تسم المجتمع بميسمها، وهي على مستوى النص تسرد لنا نماذج حية من النماذج الصامتة الساكتة الدالة على عمق لإشكالية والمفسرة لحيثيات الشخصية ممارساتها الخاصة، فهند تسرد وقائع حياتها مع توأمها هبة وهذا الثنائية المقيتة المشكلة لعلاقات لها نسق المحايثة والتماهي داخل النص، كما تحكي أيضا مأساتها الشخصية مع حبيبها التي فض عذريتها وصمتت هي عن قصد في إنتظار النتيجة، وكانت النتيجة أنه صمت أيضا حينما تقدم ليطلب يدها فرفضه أبوها حتى لا يتكرر ما حدث بينه وبين زوجته مع ابنته، كما يطرح النص أيضا إشكالية طفال الشوارع وما تعانيه هذه الفئة من لروف اجتماعية بالغة القسوة والحدة انعكاس هذه الإشكالية على وضعية لجتمع بأكمله من خلال الأمراض لاجتماعية التي تفرزها هذه الفئة من الناحية الاقتصادية والاجتماعية والصحية وغيرها.

والنص على مدار أسئلته وعلاماته الخاصة تتمحور دلالاته ودلالاته حول رمزية الزمن الآني واستلاب مكوناته المختزنة، وبناء الرموز وتحميلها للمعني المتفاعل مع فكر المتلقي وتجربته ومستواه الثقافي، ولعل الترميز الذي لجأ إليه الكاتب لتجسيد تشظي الصمت واستلاب الواقع لزمن وأحداث وشخوص انتخبها الكاتب من الواقعي ومزجها بالمتخيل لفعل وحدث يرى أنه هو لمحرك لتجربته الروائية: «لقد أثار العالم الروائي الكثير من الجدل والتجاذب، فأصحاب المذاهب الواقعية والطبيعية الساذجة ظنوا أن العالم الروائي ظل شاحب وانعكاس للوجود الموضوعي الخارجي وغالبا ما نرى في بداية قصة أو فيلم الإشارة إلى أن الأحداث المروية واقعية بمعنى أنها مروية كما حدثت فعلا» (١٥)، وهذا هو ما فعله الكاتب في رؤيته السردية.

ففي مواقيت الصمت يكمن الرمز في هواجس الكلام وفي مواقيت الكلام تكمن المعاني البليغة للصمت، ولعل هذا النص بما يحمل من مضامين وإشكاليات هو المعبّر عن تلك المقولة التي صدرنا بها هذه الدراسة «السكوت علامة الرضا»، فقد حفل النص بكثير من علامات الصمت والسكوت. وكان في بنائه الفني الخاص أيقونة مهمة في سيميائية الرواية العربية المعاصرة.

فقد اعتمد الكاتب على عدة تقنيات في تشكيله لبنية نصه الروائي هذه التقنيات تكمن في عدة سمات منحت النص أبعادا سردية مهمة من هذه السمات، الواقعية الغرائبية المستخدمة في تحديد واقع خاص يمس البعد الإجتماعي لواقع الشخصيات، كما يمس البعد الاجتماعي للمجتمع وقضاياه الملحة، كذلك استخدام الراوي السارد المتمثل في حكي المرأة والذي ينتقل منه السرد ثم يعود إليه مرة اخرى من خلال استنطاقه للشخوص الاخرى المشاركة معه في بنية العمل، واستخدام الصوت الراوي أو الشخصية الراوية التي تحكي أبعاد حياتها الخاصة وهذه الأصوات تمثلت في سرد شخصيات أم شحتة وأولاد الشوارع الذين أتي بهم محمد جنينه كنماذج لرسالة الدكتوراه التي تعدها هند عن أطفال الشوارع، كان سردهم لحياتهم الخاصة نوعاً من السرد الذاتي الخبري المكمّل لتجربة الصوت الراوي، كذلك كان للمكان والزمان دور مهم في تأطير الواقع بما يحمل من سمات خاصة وعامة أضافت إلى النص أبعادا موحية تتناسب مع طبيعة الموضوع ومناخه الخاص الذي جاء عليه.

كما اعتمد الكاتب أيضا على لغة واقعية مزجها ببعض العامية المصرية لتجسيد الأبعاد الرئيسية لنسيج النص الذي جاء في سبعة مقاطع رئيسية، وضع في كل منها ثيمة عمل عليها في إيجاد أبعاد وجوانب تخدم البنية الأساسية لمعمار النص. كما اعتمد على خاصية الزمان والمكان في ترتيب أركان النص وجعل التداخل بينهما هو المهيمن على أبعاد وجوانب خاصة ما يخص الزمان الداخلي.

حيث كان الزمن الداخلي في الرواية يكمن في أنه علامة اخرى تحدد من خلاله العلاقات المتشابكة والمتداخلة بين الرجل والمرأة وبين الخير والشر وبين القديم والحديث وبين ما مر من أحوال وتجارب من خلال هذا النص الروائي الذي نجح كاتبه في أن يعالج من خلاله ظاهرة من أهم الظواهر الإجتماعية التي يمر بها العالم الثالث الآن ألا وهي ظاهرة أطفال الشوارع حينما طرح من خلال المقاربة الأخيرة في الرواية وصفاً هيكلياً لشخوص نمطية تم انتخابهم لطرح هذه الإشكالية التي جاءت انسجاما مع التصميم الذي وضعه الكاتب ليحدد من خلاله حدود البحث النابع من تطور الشخصية وحيثيات هذا التطور، وعمق المشكلة وحيثيات هذا العمق.

---

* كاتب من مصر

الهوامش

- مواقيت الصمت (رواية)، الدار العربية للعلوم.. ناشرون، بيروت،٢٠٠٧

(١) وضع الرواية العربية في حقل ثقافي غير روائي، د. فيصل دراج، المدى، دمشق، ع ٢١، مارس ١٩٩٨ ص ٧

(٢) الرواية ص ٢٩

(٣) الرواية ص ٣٢/٣١

(٤) الرواية ص ٣٧

(٥) الرواية ص ١٣

(٦) الرواية ص ٢٣

(٧) الرواية ص ٢٣

(٨) الرواية ص ٤١

(٩) مشكلة الإنسان، د. زكريا إبراهيم، مكتبة مصر، القاهر، د.ت ص ٩٤

(١٠)القارئ والنص.. العلامة والدلالة، د. سيزا قاسم، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٢ ص٢٩

(١١)الرواية ص ٨٧

(١٢)الرواية ص ١٤٤

(١٣) الرواية ص ١٥٥

(١٤) السيميائيات وتحليلها لظاهرة الترادف بين اللغة والتفسير، محمد إقبال عروي، عالم الفكر، الكويت، ع٣ م ٢٤، يناير/ مارس ١٩٩٦ ص ١٩١

(١٥) السيميولوجيا والأدب.. مقاربة سيميولوجية تطبيقية للقصة الحديثة المعاصرة، د. أنطون نعمة، عالم الفكر، الكويت، ع ٣ م ٢٤ يناير/مارس ١٩٩٦ ص ٢١٣